



الشيخ محمد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

❊ ❊ ❊

هذه المقالة كتبت للتنظيم الداخلي لحزب الدعوة الإسلامية قبل سنين في ظروف المطاردة والهجرة، ثم جرى تعديل في بعض فقراتها لعلّها تنفع ـ إن شاء الله تعالى ـ الجماعات الإسلامية العاملة في الساحة الإسلامية اليوم.

اسم الكتاب: . العلاقة العضوية داخل الجماعات الإسلامية
المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي
تاريخ الطبع: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م
الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة: ..... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّار
رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ
اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ
ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

الفتح: ٢٩

العلاقة العضوية داخل الجماعات الإسلامية

ليس من ريب أن سلامة العلاقات داخل الجماعة الإسلامية من أهم عوامل سلامتها، واستمرار عملها، وتمنح الجماعة قابلية الاستمرارية والفاعلية في مواجهة الأحداث الكبيرة، كما تعطيها المناعة الكافية ضد الأمراض والأعراض التي تصيب الجماعة، وتنهي أو تحجم دورها وفاعليتها.

وبعكس ذلك فإن تردّي العلاقات الداخلية في الجماعة يؤدي إلى تفتيتها، وإهدار الطاقات الإنسانية التي تحتاجها الجماعة في مجال العمل العسكري والسياسي، وفي مواجهة العدو.

وذلك أن تردي العلاقات داخل الجماعة يستهلك الطاقات والإمكانات الإنسانية المتوفرة في الجماعة، في المشاكل القائمة في جو الجماعة، وتستهلك المشاكل الداخلية للجماعة أكثر طاقات الأفراد وجهودهم كما تستهلك أكثر أوقات العاملين.

وطبيعي جداً أن يكون مصب هذه الجهود والطاقات والأعمار هو البناء الداخلي للجماعة وتنمية طاقاتها وقدرات أفرادها وإعداد الطليعة العاملة وتهيئة الرأي العام لمواجهة الطاغوت والتصدي له، فيما إذا أحسنت الجماعة استثمار الإمكانات والقدرات البشرية التي تتوفر لديها.

وترى كم تكون خسارة الجماعة عندما تنحرف هذه الجهود والطاقات عن مصرفها الصحيح، وتصرف في مشاكل الجماعة الداخلية، وفي إصلاح ما يفسد من العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأعضاء حينا، وبين المسؤولين حينا آخر، وذلك عندما تؤدي هذه الخلافات إلى حدوث انقسامات وانشعابات في داخل الجماعة، ويتطور الأمر من خلاف بسيط في الفكر أو العمل إلى وجود جناحين في داخل الجماعة ثم يتطور الأمر إلى انشعاب جماعتين عن جماعة واحدة.

والذي يقرأ تاريخ الجماعات والأحزاب العلمانية والمادية يجد كثيراً من هذه الانشعابات والانقسامات داخل الجماعات، فتاريخ الحزب الشيوعي - مثلا - يمر عبر كثير من هذه الانشقاقات والانقسامات، وتاريخ حزب البعث يمر عبر انقسامات وانشعابات داخلية في كل من الجناحين الكبيرين.

وأخطر ما يكون الأمر في داخل الجماعة أن يحدث هذا التدهور في العلاقات الداخلية في الجماعة في وقت تنصرف فيه الجماعة إلى قضايا مصيرية ومواجهة أحداث سياسية كبيرة، فيكون الأمر كارثة في حياة الجماعة.

وانطلاقا من حديث: «يد الله مع الجماعة» فإن الله تعالى قد جعل في عمل الجماعة من البركة ما لم يجعله في عمل الفرد، ومردود

العمل الجماعي عادة أكثر من المجموع الرياضي لأعمال الأفراد، وذلك هو البركة التي أودعها الله تعالى في عمل الجماعة.

إلاّ أن سلامة العلاقة بين أعضاء الجماعة الواحدة هو الشرط الأساس لهذا العطاء، وعندما تتردى العلاقة بين الأفراد والمحاور في الحركة الواحدة، أو بين الحركات العاملة فإن مستوى عطاء العمل الجمعي يبدأ بالانخفاض حتى يتجاوز الصفر، وفي مثل هذه الحالات تكون خسارة الجماعة أكثر من عطائها ويسلب الله تعالى عنهم البركة.

والعلاقة الصادقة النابعة من الحب في الله فيما بين أفراد الجماعة المؤمنة تستنزل نصر الله تعالى ورحمته كما أن التباعد وتنافر القلوب يحجب نصر الله تعالى ورحمته عن الجماعة.

وذلك من سنن الله تعالى، التي لا تجد لها تحويلا، والتي لا تتطابق أحياناً مع المقاييس المادية المعروفة للنصر والهزيمة.

ولكي تستطيع الجماعة المؤمنة والحركة الإسلامية أن تؤدي دورها التغييري في إقامة حكم الله على وجه الأرض وتستفيد من كل قدراتها البشرية، وتكتسب نصر الله عزّوجلّ ورحمته لابد أن تعمل بصورة جادة لتوفير مناخ سليم وصحي للعلاقات والروابط داخل الجماعة على أسس إيمانية سليمة ولذلك فإن من أهم الأعمال التي ينبغي أن تسعى إليه الجماعة المسلمة في هذه

المرحلة الحساسة دراسة العلاقات داخل الجماعة وتوفير أسباب السلامة والمتانة والاستحكام للعلاقات بين الأفراد فيها، ذلك أن متانة البناء الداخلي تمنح الجماعة التماسك والقدرة على مواجهة الصعاب والعقبات.

المصدر الأكبر للاختلاف داخل الجماعة

و(الهوى) هو أكبر مصادر الخلاف والشقاق داخل الجماعة، وليس الاختلاف في الرأي؛ فإن الاختلاف في الرأي ـ لولا الهوى ـ عامل إيجابي في نمو الجماعة ونضجها وتلاقح الآراء فيها، وقلما يؤدي الاختلاف في الرأي لو جرّد عن عامل الهوى إلى خلاف حاد في داخل الجماعة فضلاً من أن يكون سبباً في انشقاق الجماعة وتمزقها.

وللإمام الخميني﵀ كلمة بهذا الصدد تجسد كل الحقيقة في هذا المجال. يقول﵀: (لو أن مائة وأربعة وعشرين ألف نبي اجتمعوا في مكان واحد، وعاشوا مجتمعين، لم يختلفوا فيما بينهم في أمر؛ وذلك لتجردهم من الأهواء وعدم وجود تأثير للهوى في حياتهم).

ويتحول الخلاف في أغلب الأحيان من خلافات فردية بين الأفراد، نابعة من حب الذات والهوى إلى خلافات مسلكية تتسع

رقعته بالتدريج، فيستوعب الخلاف في كل من الأطراف مساحة من الجماعة، ولا يعدم الإنسان في مثل هذه الحالات ـ تحت تأثير وساوس الشيطان وتأثيراته ـ أن يتخذ ذرائع مبدئية وسياسية في الرأي ليغطي بها الخلاف ويختلق مبررات فكرية ليثير الفتنة داخل الجماعة ويتحول الخلاف إلى خلاف في النظرية والأسلوب والمنهج.

والاختلاف في الرأي في مثل هذه الحالات لا يزيد على أن يكون مبرراً للخلاف والخصومة، والسبب الحقيقي في الخلاف والخصومة يكمن في أهواء الإنسان.

ولو جردنا الاختلاف في الرأي عن عامل الهوى لم يكن شيء أسرع إليه من التفاهم والتوفيق.

وأقرب مثل لذلك الناكثون الذين خرجوا على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في حرب الجمل بدعوى أن الإمام عليه السلام دفع الناس إلى قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وقد كان هؤلاء الناس يعلمون جيداً أن الإمام عليه السلام كان أبعد الناس من هذه التهمة، وكان أحرصهم على إخماد هذه الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة.

إلاّ أنهم رفعوا بوجه الإمام قميص الخليفة يطالبونه بدمه، فقد اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل الحل والعقد من المسلمين على الإمام وتزاحموا عليه لمبايعته، ولم يكن لهؤلاء الذين أثاروا

الفتنة من قادة معركة الجمل مفرّ من البيعة، ولم يكن حكم الإمام وأسلوبه ليرضي طموحهم، ولم يبق لديهم من ذريعة في إعلان الخروج على الإمام إلاّ اتهام الإمام بالمساهمة في مقتل الخليفة.

ولذلك كله كان (الهوى) من أشد ما يخشاه رسول الله صلى الله عليه وآله على أمته: «إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة».

وللمحافظة على سلامة الجماعة ينبغي الاهتمام بالتهذيب والتزكية في داخل الجماعة، وإعداد الفرد المؤمن إعداداً روحياً وأخلاقياً سليماً، ومعالجة العقد النفسية والالتواءات النفسية في الأفراد بموجب منهج أخلاقي صحيح، من أهم الضمانات لسلامة العلاقات وفاعليتها في داخل الجماعة.

وبقدر ما يتطلب الجانب الفكري والتنظيمي من شخصية الفرد العامل من اهتمام وعمل لصقل كفاءاته التنظيمية والعملية والفكرية فإن الجانب الروحي من شخصيته يتطلب أضعاف ذلك من الجهد والعمل، وان شطراً كبيراً من اهتمام المسؤولين والمربين ينبغي ان يصرف في الإعداد الروحي للجماعة الصالحة، ومتابعة نموهم الروحي والخلقي وملاحقة المشاكل التي تعترضهم على طريق ذات الشوكة. هذا أولاً.

وثانياً: ينبغي ان يتابع العضو العامل في الجماعة أوضاع الحركة والجماعة وتوجهات الأفراد بمزيد من الوعي والفهم ليميز بين التوجهات والأعمال والأحاديث التي تستبطن الهوى بنسبة ما، وتشوبها الذات، عن التوجهات الخالصة التي لا تشوبها شائبة الذات أصابت أم أخطأت. والخطأ هنا خطأ على أي حال، إلاّ أنه لا يأبى التصحيح ولا يتحول إلى مشكلة في الجماعة.

واكتشاف هذه التوجهات التي تشوبها شائبة الذات والهوى في جسم الحركة في بداياتها تساعد الحركة في التغلب عليها، ومعالجة هذه الحالات في بداياتها أيسر بكثير من معالجتها بعد أن تتمكن ويشتد عودها في داخل الجماعة، وانّ من الخطأ الفادح أن تؤجل الجماعة علاج مثل هذه الحالات (الفردية) و(الهوى) و(الذات) إلى أن تستكمل نموها المرضي، وتستفحل وتصبح حالات صعبة العلاج، وتستقطب مساحة واسعة من الجماعة.

وليس من شك أن مثل هذه الحالات لا تستفحل في جسم الجماعة مرة واحدة، وإنما تبدأ ببدايات خفيفة، وتمر عبر مراحل كثيرة، وعلاجها بالتي هي أحسن في مراحلها الأولى أيسر بكثير من مواجهتها في حالة استفحالها واشتدادها.

ولربما يؤدي التهاون في هذا الأمر إلى مصادرة كل جهود

الجماعة وعملها، ولذلك فلابد من أن تُسيّج الجماعة نفسها بسياج قوي من التقوى حتى لا يتمكن الشيطان من أن ينفذ إليها وينزغ فيما بين أفرادها.

مقومات العلاقة العضوية داخل الجماعة:

وفيما يلي سنبحث في هذه الدراسة ـ إن شاء الله تعالى ـ مقومات وأركان العلاقة العضوية داخل الجماعة آملين أن تكون هذه الدراسة موضع اهتمام العاملين في سبيل الله والدعاة إلى الله.

تقوم العلاقة داخل الجماعة على مجموعة من الأسس أهمّها أربعة أسس:

(١) التحابب في الله.
(٢) الثقة.
(٣) الطاعة.
(٤) التفاهم والنقد والنصيحة.

ولابد أن تتوفر هذه العناصر الأربعة مجتمعة حتى تقوم العلاقة والارتباط داخل الجماعة على أساس صحيح، وسوف نتوقف عند كل واحد من هذه العناصر الأربعة وقفات قصيرة لنتأمل فيها.

١. التحابب في الله

الحب، الأساس الأول للعلاقة، ويعطي للعلاقة حيوية وفاعلية، ومن دونه تكون العلاقة فاترة، مهما كانت درجات الطاعة والثقة، وإن لم يتوفر في جو الجماعة التحابب والمودة المتبادلة لا تتمكن الجماعة أن تحتفظ بأعضائها في داخل الجماعة.

إن العلاقة داخل الجماعات والقيادات العلمانية تقوم على أساس الطاعة والتنظيم، وأمّا دور الأخوة والمحبة فهو دور ثانوي في العلاقات التنظيمية.

بينما يكتسب التحابب والرحمة والأخوة دوراً أولياً في تنظيم العلاقات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي والجماعة الإسلامية.

يصف القرآن الكريم العلاقة بين الأنصار (الذين تبوؤوا الدار) والمهاجرين الذين (هاجروا إليهم)، فيقول تعالى عنهم: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[الحشر:٩].

ويصف القرآن الكريم العلاقة بين المؤمنين بالأخوة: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾[الحجرات:١٠].

ويصف العلاقة بين المسلمين في صدر الإسلام الأول بهذا

الوصف الجميل:

﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾[الفتح:٢٩].

ويَمُنّ تعالى على عباده المؤمنين بنعمة الأخوة ﴿**فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾[آل عمران:٩٨].

يقول تعالى: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾[الأنفال:٦٤].

وعن رسول الله ﷺ: «المؤمن ألف مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف».

وعن رسول الله ﷺ أيضاً: «ما تزال أُمّتي بخير ما تحابّوا».

إن العلاقة التنظيمية في داخل الجماعة إذا لم ترفدها مشاعر الأخوة والحب والرحمة تكون ضعيفة لا تقاوم نزغ الشيطان، ولا تستطيع أن تستمر طويلاً دون أن تتأثر بمؤثرات الهوى والذات.

حالات الحساسية

وكثير من المشاكل التي تحدث داخل الأحزاب والجماعات والحركات تنبع من هذه النقطة بالذات، فقد تؤدي مشكلة صغيرة بين عضوين في الجماعة إلى جفوة وقطيعة وقد يؤدي كلام عفوي أو غير مسؤول إلى حساسية تتفاقم وتنتهي إلى قطيعة.

إن هذه الحالات تدل على ضعف الروافد الفطرية للعلاقة في شبكة العلاقات داخل الجماعة.

فالصحبة والرحمة والأخوة والمودة داخل الجماعة من شأنها أن تسهل مرور هذه المشاكل داخل الحركة وتفسيرها وتوجيهها، وتمنع من تعقيدها وانقلابها إلى حساسية فجفوة فقطيعة، فتحامل وموقف من الطرف الآخر.

فقد يواجه الإنسان موقفاً قاسياً بعض الشيء، أو اعتراضاً أو كلاماً عفوياً شديداً، أو حالة انفعالية من أخيه، الذي يضمر له في نفسه حباً وعطفاً، فلا يشق عليه أن يتجاوزه ويوجهه توجيهاً حسناً، ويفسره بالتي هي أحسن، ويمرره تمريراً جميلاً، دون أن يترك أي أثر سلبي في نفسه، أو في العلاقة بينهما.

وهذه هي صفة العلاقة التي ترفدها الروافد الإيمانية في نفس الإنسان.

وقد يواجه الإنسان من زميله أو صاحبه نفس الموقف والحالة وليست بينهما محبة ورحمة وأخوة، فيترك في نفسه أقبح الأثر، ويتحسس منه ويحمل كل كلمة أو موقف أو حالة من صاحبه على محمل سوء، ويرده بأسوأ منه، فتتكوّن بينهما الحساسية وتتفاقم فتكون هجراً وقطيعة فتحامل وهذه هي صفة العلاقة التي لا ترفدها روافد الإيمان.

إن الحساسية من أوسع أبواب الشيطان إلى نفوس المؤمنين، ولن يجد الشيطان باباً إلى نفوس المؤمنين للنزغ فيما بينهم أرحب من الحساسية.

إن العلاقة التي لا تتقوم بالمحبة والرحمة والمودة بين المؤمنين ـ مهما تكن درجة الطاعة وقوة التنظيم فيها ـ تعتبر مزرعة خصبة للحساسية، ولا شيء يمنع عن بروز الحساسية بين المؤمنين كالمودة والأخوة.

ولأمر ما يجعل القرآن الكريم (الأُخوّة) أساساً للعلاقة بين المؤمنين:

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

التحابب في الله

والحب الذي يجمع المؤمنين ويربط بين قلوبهم ويشدهم بعضهم ببعض يختلف عن الحب الذي يجمع سائر الناس.

فإن الذي يجمع سائر الناس من الحب هو الحب الذي يصدر عن عاطفة أو مصلحة، وهو أمر يسرع إليه الزوال والتغيير.

أما الحب الذي يجمع المؤمنين فهو الحب في الله، وهو حب يثبت ويقوى أمام نزغ الشيطان ونوازع الهوى فيحب الإنسان

أخاه لحبه لله ولحب الله تعالى له، وهذا الحب يسد على الشيطان ثغرة ينفذ من خلالها إلى نفوس الناس فإن كثيراً من الحساسيات والمشاكل تنشأ فيما بين العاملين من خلال المنافسة والتسابق في العمل، فإذا كان العمل هو الذي يجمع القلوب ويؤلّف بينها، عندما يكون العمل لله والحب لله، وعندما يحب المؤمن أخاه لأنه يعمل لله، فلا يمكن أن ينفذ الشيطان بينهما، وينزغ من خلال المنافسة في العمل.

وعندما يكون الحب لله، فإن صدر الإنسان العامل المؤمن يتسع لكثير من سلبيات أخيه ومتاعبه، وذلك أنه يحبه لله، لا لنفسه ولذاته حتى يضيق بما يرى منه من سلبيات ومشاكل.

وهذا النوع من التحابب بين المؤمنين في الوقت الذي يشد بعضهم إلى بعض ويؤلّف بين قلوبهم، فإنه يشدهم إلى الله تعالى ويزيد في إيمانهم، ويقربهم إليه تعالى.

ولذلك فقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ«انه قال لأصحابه: أي عرى الإيمان أوثق؟

فقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد.

فقال رسول الله ﷺ: لكل ما قلتم فضل وليس به ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالي أولياء الله

والتبري من أعداء الله».

وعن علي بن الحسين عليه السلام: «إذا جمع الله عزّوجلّ الأولين والآخرين قام مناد فنادى بصوت يسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب.

قال: فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين؟

فيقولون: إلى الجنة بغير حساب.

فيقولون: أي حزب أنتم من الناس؟

فيقولون: نحن المتحابون في الله.

قال: فيقولون: وأي شيء كانت أعمالكم؟

قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله.

قال: فيقولون: نِعم أجر العاملين».

عن رسول الله ﷺ: «ودّ المؤمن للمؤمن في الله أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله».

وعن الصادق عليه السلام: «طوبى لمن لم يبدل نعمة الله كفراً، طوبى للمتحابين في الله».

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «قال الله عزّوجلّ: حقت محبتي للمتحابين فيّ».

٢. الثقة

والعنصر الثاني من العناصر التي تشكل العلاقة في داخل الجماعة الإسلامية (الثقة).

ولا نقصد بالثقة هنا التقليد اللاواعي، والانقياد الأعمى والجري وراء الآخرين من غير تثبت أو تبيين فهو أمر يرفضه الإسلام رفضاً كاملاً إذا كان الطرف الآخر غير مزكى في سلوكه ودينه. يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات:٦].

إلاّ أنه كما يجب التبين والتثبت عند الشك في الطرف الآخر، بحكم آية النبأ يجب طرح الثقة فيه، والاطمئنان إلى كلامه ومواقفه عند الاطمئنان إلى دينه وكفاءاته.

وينقلب الإنسان في هذه الحالة إلى قيمة قائمة بالذات في مجال التعامل، وفي شبكة العلاقات الاجتماعية، فيكون الأساس في التعامل مع المؤمن، الثقة، ما لم يثبت شك في دينه أو كفاءته.

وهذه الثقة هي أساس التدين والارتباط بالله تعالى، فالعقيدة بالله تعالى وكتابه واليوم الآخر والملائكة لا تتأتى في الغالب من

مصادر حسية وتجريبية وإنما تأتي بالاطمئنان والثقة.

فنحن نؤمن بكتاب الله واليوم الآخر وملائكة الله وحدود الله تعالى عن طريق الوثوق بما جاء به الأنبياء والمرسلون.

كما أن حياة الإنسان على وجه الأرض تستقر بالثقة، فلو أسقط الإنسان الثقة من حياته الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعائلية لم يستقر له قرار.

والثقة بهذا المعنى هي الاتباع الواعي في مقابل الاتباع اللاواعي الذي يرفضه الإسلام في كل مجالات حياة الإنسان.

وتتأكد قيمة (الثقة) في مجال التنظيم والقيادة، فلا يمكن أن يؤدي التنظيم دوره في حياة الأمة ما لم تتوفر الثقة بصورة جيدة في شبكة التنظيم، ولا يمكن أن تؤدي القيادة أو القائد دوره الفعال في حياة الأمة أو في مجال التنظيم ما لم يتمتع بثقة الأمة أو العاملين.

فلابد إذن أن يعتمد الإنسان عنصر الثقة أساساً للتعامل مع التنظيم والقيادة، كما لابد لكل فرد في داخل الأمة أن يعتمد الثقة أساساً للتعامل مع القيادة والأجهزة المسؤولة في الدولة الإسلامية.

ولابد أن تكون العلاقة المتبادلة بين الفرد والجماعة قائمة على أساس الثقة حتى تستقيم هذه العلاقة وتدوم، فتضع الجماعة

ثقتها في أعضائها، ويضع الفرد الثقة في الجماعة... عندئذ تكون العلاقة بين الفرد والجماعة علاقة صحيحة راشدة تحفظ الفرد والجماعة.

ولعل السر في قصة رسول الله موسى بن عمران عليه السلام والعبد العالم الذي آتاه الله من لدنه رحمة وعلماً كما جاء في سورة الكهف: ٦٠ ـ ٨٢ الإشارة إلى هذه الحقيقة التربوية.

فلم يكن من بأس على العبد العالم الذي آتاه الله تعالى من لدنه رحمة وعلماً أن يعلّم موسى عليه السلام ما سأله وأنكر عليه من أعماله لولا أنه أراد أن يعلمه الصبر والثقة وقد أخبره أخيراً بكل ما سأله رسول الله موسى عليه السلام وأنكره عليه وشرح له كل ما حجب عنه علمه عندما افترقا، فلم يكن إذن من سبب ـ لعدم الإجابة على أسئلة موسى عليه السلام وعتابه، وأخذ العهد عليه ابتداء أن لا يسأل ـ غير أن يعلمه الصبر والثقة.

فقد كان يعلم رسول الله موسى عليه السلام أن هذا العبد الصالح الذي يلتقي به عند مجمع البحرين هو ممن آتاه الله من لدنه رحمة وعلما، ولذلك طلب مصاحبته ومتابعته عندما التقيا عند الصخرة التي فقد عندها الحوت وانقلب الحوت إلى البحر حيا فلا موجب إذن للشك في شيء من أفعاله وأقواله، ولابد أن يطرح موسى عليه السلام فيه ثقته كاملاً، ويصبر على ما لا يعلم من

أفعاله وأقواله.

وفي لقاء موسى عليه السلام مع هذا العبد العالم عند مجمع البحرين من الأدب والرفيع ما ينبغي أن يقف عنده المؤمنون طويلاً، فقد كان موسى عليه السلام جم الأدب والتواضع مع العبد العالم وهو الذي آثره الله بالرسالة واصطفاه نبياً، وجعله أحد الخمسة من أولي العزم من الأنبياء.

ورغم ذلك كله فان موسى عليه السلام يطلب منه أن يعلمه: ﴿**أَن تُعَلِّمَنِ**﴾ ولا يطرح الطلب على صيغة الأمر بل على صيغة الاستفهام، ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ**﴾ ولم يقل: أصاحبك بل اتبعك.

وأعظم قدر علمه حيث صاغه على صيغة المبني للمجهول، مما يُشعر أنه أخذ علمه من مصدر غيبي، لا يتسنى لسائر الناس، فقال: ﴿**مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾ ولم يقل: مما تعلم ثم وصف علمه بـ (الرشد).

ثم لم يطلب منه أن يعلمه كل ما آتاه الله تعالى وإنما طلب أن يعلمه البعض مما آتاه الله ﴿**مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾، «من» في كلمة (مما) للتبعيض..

وجعل ما يشيره عليه العبد العالم أمراً: ﴿**وَلا أَعْصِي لَكَ**

أَمْرًا﴾، ولم يصرح بالتزامه بالوعد الذي ألزمه به العبد العالم، بل كنى عنه أجمل كناية، وربط ذلك بمشيئة الله تعالى: ﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا**﴾[1].

واتبع موسى عليه السلام ـ ومعه فتاه يوشع ـ العبد العالم على أن لا يسأله عن شيء مما يفعل مما يجهله موسى عليه السلام حتى يحدث له منه ذكرا.

وربما أراد العبد الصالح أن يكون أول شيء يعلمه لرسول الله موسى عليه السلام (الصبر) و(الثقة).

فانطلقا حتى إذا ركبا السفينة خرقها العبد العالم، خرقاً لا يؤمن معه عليها الغرق، وموسى عليه السلام ينظر إلى ذلك، فاندهش لذلك، ولم يملك نفسه من أن يسأل العبد العالم عن سر هذا العمل الذي يعرض السفينة وأهلها للغرق، قال: ﴿**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾.

فذكره العبد العالم بما أخذه عليه من عهد على الصبر والثقة.

فاعتذر إليه موسى عليه السلام وقال: ﴿**لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾.

فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله العبد العالم، فشاط موسى عليه السلام

(١) راجع الميزان للعلامة الفقيد الطباطبائي ١٣: ٣٤٣.

غضباً ولم يصبر على هذا العمل الذي كان يراه منكراً، وقد جرى أمام عينيه، وعلى يد عبد آتاه الله من لدنه علماً ورحمة، ونسي عهده الذي قطعه على نفسه فقال: ﴿**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾.

فذكره العبد العالم ما التزمه معه من عهد، وما نبّهه إليه أول الأمر من أنه لن يستطيع معه صبراً.

فأعاد موسى عليه السلام الاعتذار وقال: ﴿**إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا**﴾.

فانطلقا حتى إذا أتيا قرية وقد اضرَّ بهما الجوع فاستطعما أهلها فلم يضيفوهما فوجد جداراً يريد أن ينقض فأقامه العبد العالم فغضب موسى عليه السلام من الخدمة التي قدمها العبد العالم بهذه القرية التي أبى أهلها أن يضيفوهما، فقال: ﴿**لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾.

فقال له العبد العالم: ﴿**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾.

ثم شرح له العبد العالم كلما أنكره عليه من الأمور التي ضاق بها صدر موسى عليه السلام ولم يحط بها علما.

ولم يكن على العبد العالم من بأس ان يعلم موسى عليه السلام كل

ذلك في حينه، ولا سيّما أنّ موسىعليه السلام قد اصطحبه على أن يعلمه مما آتاه الله تعالى من علم لولا أنه أراد أن يكون أول ما يعلّمه الصبر على ما لم يحط به علما وهو الوثوق.

ولذلك أخذ على موسىعليه السلام عهداً أن لا يسأل عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً.

وهذه القاعدة: (قاعدة الثقة) لها تطبيقات كثيرة في حياتنا الاجتماعية والسياسية والتنظيمية والدينية.

فقد تتصرف القيادة الإسلامية تصرفاً سياسياً قائماً على الحكمة وبعد النظر، ومن موضع المسؤولية، إلاّ أنه لا يتجاوب مع أحاسيس وعواطف الجماهير من الأمة، وقد تكون هذه الأحاسيس والعواطف صادقة ومباركة، ونابعة عن إيمان أصحابها وطموحهم وتفاعلهم الصادق مع قضايا الإسلام، إلاّ أنها ينقصها بعد النظر والحكمة.. وفي مثل هذه الحالات تتخذ القيادة من موضع المسؤولية قراراً لا يستطيع أن يستوعب عواطف الجماهير والشعارات السياسية المطروحة على الساحة، والتي تتفاعل مع عواطف الناس.

فلا يجوز في مثل هذه الأحوال معاكسة القيادة واتخاذ المواقف الانفعالية والشعارية، مما قد يؤدي إلى اضطرار القيادة للتعديل في قرارها، ولا يجوز إحراج القيادة أو إحباط القرار.

فلا شك أن القيادة من موضع المسؤولية تكون أبعد عن التأثر بالحالات الانفعالية وأقرب إلى التعقل والتروي والحكمة في اتخاذ القرار المناسب من الجمهور، ويجب في مثل هذه الحالات طرح الثقة الكاملة في القيادة لتتصرف سياسياً بما تمليه عليها المسؤولية الشرعية، بعيداً عن المواقف الانفعالية.

ولا شك أن هذه العواطف المتفاعلة مع قضايا الأمة مباركة، وهي رأس مال القيادة السياسي، إلاّ أنها لا يجوز أن تعيق القرارات السياسية والعسكرية التي تضطر إليها القيادة في بعض الظروف بمعزل عن الشعارات السياسية.

وفي الأحكام الشرعية قد نقرأ حكماً في حديث فلا تستطيع أن تستوعبه وتحيط به خبراً.

فمن المعقول والصحيح أن نرجع إلى سند الحديث لنتتبع سند الحديث إلى الإمامعليه السلام أو إلى النبيصلى الله عليه وآله فإذا وجدنا السند ضعيفاً أعرضنا عنه.

إلاّ أننا عندما نتأكد من صحة الحديث من حيث السند لا يجوز أن نحكّم أفهامنا في فهم الأحاديث والسنة ونعرض عما لا نفهم منه ونقبل منه ما نفهم، فإن الدين هو الثقة بما يقول الأنبياء وخلفاؤهمعليهم السلام.

وهذه الظاهرة ـ وهي أن نجعل أفهامنا مقياساً لقبول وردّ

الأحاديث ـ من أكثر الظواهر الفكرية خطراً على سلامة الخط الفكري الإسلامي عند الأمة.

ومن هذا المنزلق انزلق كثيرون من أصحاب الفكر والرأي والعلم عن صراط الله المستقيم، وكان أئمتنا عليهم السلام يحذرون أولياءهم من أن يجعلوا فهمهم مقياساً وأساساً لمعرفة أحكام الله تعالى.

روى أبان بن تغلب، قال: «قلت للإمام الصادق عليه السلام رجل قطع إصبعا من أصابع المرأة كم فيها من الدية؟

قال: عشر من الإبل، قال: قلت: قطع إصبعين؟

قال عليه السلام: عشرون، قلت: قد قطع ثلاثاً؟

قال: ثلاثون، قلت: قطع أربعاً؟

قال: عشرون.

قلت: سبحان الله يقطع ثلاثا فيكون عليه ثلاثون ويقطع أربعاً فيكون عليه عشرون، كان يبلغنا هذا ونحن بالعراق، فنقول إن الذي جاء به شيطان.

قال عليه السلام: مهلاً يا أبان، إن هذا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله أن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية، فإذا بلغ الثلث رجع إلى النصف، يا أبان انك أخذتني بالقياس، والسنة إذا قيست محق الدين».

❊ ❊ ❊

وفي مجال العلاقات الاجتماعية في المجتمع والعلاقات الأفقية داخل التنظيم لا شيء يقوم مقام الوثوق في توطيد العلاقة وتحكيمها وترسيخ المحبة وتعريقها.

فعندما تطرح الثقة في أخيك الذي تتعامل معه في العمل أو في المدرسة أو في الدائرة أو في التنظيم أو في غير ذلك من دوائر الحياة الاجتماعية تكسب كل عواطفه وثقته، وكما أن الحب يجلب الحب فان الثقة تجلب الثقة كذلك فيبادلك أخوك الثقة بالثقة ويمنحك ثقته كما تمنحه ثقتك.

وبالعكس فإن الشك والظن يورث الظن والشك، فعندما تشك في إنسان ونظن فيه سوءاً، فإن هذا الظن يولد ظناً في نفسه بالمقابل.

❊ ❊ ❊

وقد ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام تأكيد كثير على التعامل بالثقة فيما بين الأخوة المؤمنين، إذا كانوا من أهل الصلاح والثقة.

ففي دعاء الإمام السجاد عليه السلام:

«وأبدلني من ظنّه أهل الصلاح الثقة».

والثقة في داخل الجماعة من أهم مقوّماتها، فلابد أن يتوفر في جو الجماعة السرية والكتمان دائماً ولا سيّما في الظروف

السياسية الصعبة، وذلك لسلامة سير الجماعة وقراراتها، ومن غير الصحيح أن يطلب العضو في الجماعة أن يطلع على كل خلفيات القرار وظروفه وملابساته.

ولست أقول أن يلغي الفرد العامل فكره وآراءه.. فإن من الضروري في حركة الجماعة أن يرفد العضو الجماعة بأفكاره وأنظاره.. فإن تبادل الأفكار والآراء بين العضو والجماعة يؤدي إلى ترشيد الجماعة وتسديدها.. ولكن ذلك كله لا يغني عن حالة الوثوق والاطمئنان بين الجماعة وأعضائها.

والحالة السليمة داخل الجماعة والمنظمة الإسلامية أن تتعادل حالة الوثوق وتداول الآراء جنباً إلى جنب.

والعكس أيضا صحيح، فلابد أن تضع الجماعة ثقتها في أعضائها، فإن الثقة كما هي تجلب الثقة تؤهّل للثقة، كذلك إذا كان الطرف الآخر من أهلها، فإن إشعار الفرد العامل بأنه موضع ثقة الجماعة في إعطاء المسؤوليات وتخويله صلاحية العمل تجعله أهلاً لهذه الثقة وتجعل تصرفاته وأعماله وأقواله ناجمة عن الإحساس بالمسؤولية تجاه هذه الثقة.

وبعكس ذلك لو كان المسؤول يحتاط دائماً في إعطاء المسؤولية وصلاحيات العمل للفرد، ويحدده فيما لو أناط به مسؤولية عمل من الأعمال بمراجعته والاتصال به في كل ما

يواجهه من مشكلة ويمنعه أن يتصرف بالشكل الذي يراه فإن قدرات العامل وكفاءاته في مجال عمله لا تنمو نمواً طبيعياً، ويبقى بحاجة إلى رعاية مسؤولة في كل الأحوال دون أن يتمكن من الاستقلال في رأي أو موقف.

وقد يقال إنّ إناطة المسؤوليات به بهذه الصورة قد تحمل الجماعة بعض السلبيات إلاّ أن تحمّل هذه السلبيات أهون من بقاء العامل في حيز رعاية مسؤوليه إلى الأخير، وعدم تمكنه من الاستقلال بعمل أو رأي أو موقف وعجزه عن تحمل المسؤولية.

وقد تؤدي إناطة المسؤولية ببعض الأفراد في الجماعة إلى نتائج سلبية، وهذا صحيح وواقع يكتشفه المسؤول بعد فترة من الزمن، ويعرف أن الفرد لم يكن مؤهلاً لهذه المسؤولية إلاّ أن من الصحيح أيضاً أن إناطة المسؤوليات بالأفراد وطرح الثقة فيهم تكشف للمسؤول كنوزاً من المواهب والكفاءات التي ادّخرها الله تعالى في نفوس عباده، ولم يكن المسؤول يكتشف ذلك لولا انه أقدم على إناطة المسؤولية بهم.

ولكن لا يعني ذلك على كل حال ترك الفرد العامل وعدم محاسبته وعدم مراقبته في عمله من قبل المسؤول، فذلك مما لابد منه في داخل أي جماعة.. وعلى كل حال: من غير الصحيح التشكيك في قدرة الأفراد على تحمل المسؤولية أو تحديدهم

في عملهم بحيث يشعر الفرد انه لا يستطيع أن يستقل في موقف أو رأي.

ولا يعني ما تقدم من حديث أن نضع ثقتنا في الآخرين من غير حساب وتدقيق، فإن هناك أزمتين تعاني منهما امتنا وقد عالج الإسلام كل واحد من هاتين الأزمتين علاجاً حكيماً.

إحداهما: أزمة الثقة وقد تحدثنا عنها طويلاً.

والأخرى: أزمة السذاجة والاسترسال في منح الثقة من دون حساب ودقة.

وكما يجب أن ننتبه لأهمية الثقة ودورها الكبير الفاعل في حياتنا الاجتماعية والسياسية والتنظيمية والدينية، كذلك ينبغي أن ننتبه إلى خطورة وضع الثقة في غير موضعها فإن وضع الثقة في غير أهلها أخطر من سحب الثقة من أهلها، وكما يختل عمل التنظيم من دون الثقة، فإن الثقة التي توضع عن غير قناعة، وعلى غير الموازين الشرعية يكون مردودها السلبي أعظم من فقدان الثقة نفسها في داخل الحركة، ولا يقل خطر الاسترسال الساذج في الثقة عن فقدان الثقة، فلابد من الاهتمام بوضع الثقة في موضعها المناسب.

في كتاب الكافي والخصال عن الإمام الصادق عليه السلام:

«لا تثق بأخيك كل الثقة فإن صرعة الاسترسال لن تستقال».

وفي كتاب الغرر عن أميرالمؤمنين عليه السلام:

«الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار من قصور العقل».

وعن الصادق عليه السلام: «من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندماً».

وهناك موازين دقيقة ومعايير لطرح الثقة في أحاديث أهل البيت عليهم السلام نذكر نموذجاً واحداً منها في هذا المقال.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

«إذا رأيتم الرجل قد حسن سمعته وهديه، وتماوت في منطقه، وتخاضع في حركاته، فرويداً لا يغرنكم، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيته ومهانته وجبن قلبه، فنصب الدين فخاً لها، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره، فإن تمكن من حرام اقتحمه.

وإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام، فرويداً لا يغرنكم حتى تنظروا ما قدر عقله، فما أكثر من ترك ذلك اجمع، ثم لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله.

فإذا وجدتم عقله متيناً، فرويداً لا يغرنكم، حتى تنظروا أمع هواه يكون عقله أم يكون هواه مع عقله، وكيف محبته للرياسات الباطلة وزهده فيها؟ فإن في الناس من خسر الدنيا والآخرة يترك

الدنيا للدنيا ويرى أن لذة الرياسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحللة، فيترك ذلك اجمع طلباً للرياسة، حتى إذا قيل له: ﴿**اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾، فهو يخبط خبط عشواء، يقوده أول باطل إلى أبعد غايات الخسارة، ويمده ربه بعد طلبه لما يقدر عليه من طغيانه، فهو يحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله، لا يبالي ما فات من دينه إذا سلمت له الرياسة التي قد شقى من اجلها، فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذاباً مهيناً.

ولكن الرجل، كل الرجل نعم الرجل، هو الذي جعل هواه تبعا لأمر الله، وقواه مبذولة في رضا الله، يرى الذل مع الحق أقرب إلى العز في الباطل، ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرائها يؤديه إلى دوام النعيم، في دار لا تبيد ولا تنفد، وان كثيراً مما يلحقه من سرّائها إن اتبع هواه يؤديه إلى عذاب لا انقطاع له ولا زوال، فذلكم الرجل نعم الرجل، فبه تمسكوا، وبسنته فاقتدوا، وإلى ربكم به فتوسلوا، فإنه لا ترد له دعوة ولا تخيب له طلبة».

❊ ❊ ❊

٣. الطاعة

لابد من الطاعة في أي عمل جمعي منظم سواء في مجال الدولة أو في الجماعة أو في العائلة أو في المدرسة أو في المعمل أو في أي دائرة اجتماعية أخرى.

والخلاف بين المذاهب السياسية قائم حول مصدر الطاعة والالتزام بها في المجال السياسي، فالديمقراطية تذهب إلى أن إرادة الشعب هي مصدر شرعية الطاعة.

والناس هم الذين يلزمون أنفسهم بطاعة المقررات والقوانين عن طريق العقد الاجتماعي والانتخاب.

ونحن نعتقد أن حق الطاعة لله تعالى، فله عز شأنه وحده (الولاية والأمر والنهي) وليس لإنسان على إنسان آخر ولاية، إلاّ أن يأمر الله تعالى.

فالمصدر الشرعي للطاعة هو حكم الله عزّوجلّ، وأي طاعة مشروعة أخرى لابد أن تنحدر من هذا المصدر، سواءً كان ذلك طاعة النبي أو الإمام المعصوم، أو الفقيه، أو ممثلي الفقيه، أو الأجهزة التنفيذية التي تكتسب شرعيتها من قبل الفقيه في الدولة الإسلامية.

و(الجماعة) حالة جمعية منظمة من داخل الأمة وقوامها

القيادة والطاعة، ولا تستطيع الجماعة أن تؤدي دورها التنظيمي والقيادي إلاّ من خلال الطاعة.

ولا يختلف السلَّم الشرعي للطاعة في الجماعة عنه في داخل الأمة ولابد أن تتسلسل الطاعة إلى طاعة الولي الفقيه نائب الإمام بالنيابة العامة ثم الإمام المعصوم الذي ينوب عنه الفقيه.

ومن دون ذلك لا طاعة لأحد على أحد.

والطاعة تتطلب أن يتجاوز الإنسان مزاجه وذوقه ورأيه في العمل عندما يغاير القرار هواه ومزاجه ولربما رأيه في العمل، وذلك حتى ينسجم الفرد مع العمل الجمعي ومن غير ذلك لا تتم الطاعة فليس من الطاعة أن يستجيب الإنسان لكل قرار ينسجم مع رغباته وآرائه ويخالف القرار الذي يغاير رأيه وهواه.

وقيمة الطاعة الحقيقية تبرز عندما يكون القرار غير منسجم مع رغبات الإنسان ومزاجه وهواه وهو المحك الحقيقي لاختبار طاعة الإنسان.

ولا شك أن للطاعة سواء في مجال الجماعة أو الدولة الإسلامية قيمة عبادية يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى عندما يكون الحكم صادراً من مصدر شرعي، ويلتزم بها الإنسان تقرباً إلى مرضاته عزّوجلّ.

ولا شك أن قيمة الطاعة من الناحية العبادية تختلف باختلاف

درجة معاناة الإنسان في الطاعة، فكلما كانت الطاعة تتطلب من الإنسان معاناة نفسية أكثر لمغالبة رأيه ومزاجه وذوقه الشخصي كانت قيمة الطاعة هذه أكثر وعطاؤها أكثر أيضاً.

أما عندما يحكّم الإنسان ذوقه ومزاجه الشخصي وهواه أحياناً على القرار الصادر من قبل الجماعة فيقبل منه ما ينسجم معه ويرفض منه ما لا ينسجم معه فلا يكون من الطاعة في شيء.

وأكثر ما يمتحن الله عباده في الطاعة في هذه المواضع وأكثر ما يخرج الناس عن ربقة الطاعة في هذه الحالات.

ولا يعدم الإنسان في مثل هذه الحالات أن يغطي خروجه على الطاعة بمبررات فكرية، وما أكثر المذاهب المنحرفة التي تشعبت في الإسلام من هذا المنطلق بالذات،وما أكثر ما ترتب على ذلك من فلسفات وآراء ومناقشات ومطارحات فكرية.

وعندما يتتبعها الإنسان ويستبطن أصحابها ويبحث عن خلفياتها وظروفها يجد أن جذورها تمتد إلى الهوى وقد يكون أحدنا مطاوعاً للقرار، مستجيباً له مسرعاً إلى تنفيذه، ويتصور انه ينطلق في موقفه من منطلق الطاعة، فإذا اصطدم القرار في حال من الأحوال بذاته أو ببعض مشتهياته ومصالحه، أخذ يناقش ـ ولا ننتقص من قيمة المناقشة ـ ويحرّض على القرار ويحدد لنفسه موقفاً ثم يغطيه بما شاء من الفكر والرأي.

فالطاعة موقف نفسي قبل أن يكون موقفاً عملياً، أنها التنازل عن الذات في قبال القرار والقانون الذي يستمد شرعيته من الله عزّوجلّ والتخلي عن الرغبات الشخصية والذوق والمزاج، عندما يصطدم القرار بذاته أو يغاير رغباته وهواه.

والتربية الصحيحة داخل الجماعة، والسعي لتهذيب النفس، هو الذي يمكّن الفرد المنتمي إلى الجماعة من نفسه ويمنحه القدرة على تجاوز الذات والاستجابة للقرار عندما لا يوافق القرار مصالحه الشخصية ورغباته..

إن الأحزاب المادية والعلمانية تواجه أزمة الطاعة في داخل الجماعة بالإجراءات والعقوبات الصارمة وهو إلى حد ما معقول وضروري إلاّ أن هذه الإجراءات لا تكاد تعالج المشكلة من الأساس.

والمواجهة الصحيحة للمشكلة لابد أن تبدأ من تربية الدعاة على التخلي عن الذات ومغالبة الهوى والاندكاك في مقتضيات العمل الجمعي والمصلحة الإسلامية، وخير ما يبتغي به الإنسان مرضاة الله سبحانه وتعالى أن يتنازل عن هواه ومزاجه في سبيل الله.

و(التقوى) في حقيقتها هي التخلي عن الذات ومغالبة الهوى من أجل تحقيق مرضاة الله تعالى، والالتزام بحدوده.

والتربية الصحيحة للجماعة الإسلامية هي التي تمكن التقوى والطاعة من نفس الفرد وتدربه على السيطرة على الهوى والذات.. ومن هنا يمكن بناء الجماعة بناءً إسلامياً سليماً.

وأما عندما يختلف رأي العامل عن القرار ولا يكون الرأي جسراً للهوى، فله حكم آخر وحديث آخر.

فأما إن كان الخلاف في حكم شرعي يختلف فيه العامل اجتهاداً أو تقليداً عن الرأي الصادر من قبل الجماعة. فلا يمكن أن يطلب من الفرد المنتمي للجماعة في هذه الحالة الالتزام والطاعة، والطاعة هنا تساوي المعصية.

وأما إذا كان الاختلاف في الرأي في منطقة الفراغ التي تركها الشارع لأولياء أمور المسلمين ليملؤها بما تحقق المصلحة الإسلامية من أحكام تتطلبها الحاجة أو المصلحة وهي الدائرة التي يتولى أمرها الفقيه الجامع للشرائط. وفي مثل هذه الحالة يلتزم الفرد العامل بالطاعة، وعليه التنازل عن رأيه، لأن جوهر الطاعة أن يتنازل الإنسان عن رأيه الشخصي عندما يختلف رأيه عن قرار ولي أمر المسلمين.

فلا يجوز أن يتمسك برأيه الشخصي عندما يغاير الحكم الصادر من قبل ولي الأمر الفقيه ولا يمنع ذلك أن يناقش القرار بل يجب عليه أن يبادر لمناقشة الرأي لتسديده، وهذا هو معنى

النصيحة لأولياء الأمور وأئمة المسلمين، ومع ذلك فلا تجوز له المخالفة وتجب عليه الطاعة.

إلاّ إذا كان يعتقد أن الخطأ في القرار ناشئ من قصور أو تقصير في ولي الأمر، ومعنى القصور: عدم الكفاءة، فيما إذا كان القصور يسري إلى تكوين الرأي والموقف، ومعنى التقصير الإهمال والتسرع في القرار من دون استشارة أصحاب الرأي، والاستبداد بالرأي.

في غير هاتين الحالتين: القصور المخل بالكفاءة والتقصير المخل بالعدالة، وهما حالتان نادرتان تبقى ولاية ولي الأمر الفقيه نافذة على المسلمين في كل دوائر المجتمع، وان كان الفرد يختلف في الرأي عن الحاكم، ويقطع بعدم صحة رأي ولي الأمر وقراره في نطاق الجماعة أو في نطاق الدولة الإسلامية.

ولا تختلف الجماعة في ذلك عن الدولة الإسلامية فكما أن ولاية أجهزة الدولة التنفيذية المختلفة تتسلسل في سُلَّم صاعد إلى ولي الأمر الفقيه وتستقي شرعية ولايتها ونفوذ أحكامها في كل أجهزة الدولة من ارتباطها بولي الأمر الفقيه كذلك الجماعة الإسلامية، فلابدّ أن تسري الولاية في كل أجهزة الجماعة التنظيمية والحلقية، ولابد من الطاعة أيضاً لها جميعاً حسب تسلسل حلقات سُلَّم الجماعة إلاّ أن الولاية والطاعة في هذه

الحلقات جميعاً تكتسب شرعيتها من ارتباطها بولي الأمر الفقيه المتصدي وهو الفقيه العادل الكفوء.

ولا تعني كلمة: (الجماعة) أن الجماعة دائرة منغلقة على نفسها في مجال الطاعة ومنفصلة عن الأمة وليس شيء أضر بالجماعة من هذه التصور الذي يعزلها عن الأمة الكبيرة، ويفقدها دوره الفاعل المؤثر القيادي في داخل الأمة.

إن الجماعة جزء لا يتجزأ من هذه الأمة تجري عليها أحكامها والتزاماتها وولي الأمر الفقيه الذي يتصدى لشؤون الأمة، ينفذ حكمه على الجماعة كأي شريحة اجتماعية أخرى في داخل الأمة، وذلك أن الجماعة جزء من هذه الأمة، والفقيه الذي يتصدى لشؤون الأمة يتصدى لشؤون كل أجزائها ودوائرها وشرائحها والتنظيمات والحركات القائمة فيها.

وعليه فإن حكمه ينفذ على الجماعة وتجب طاعته في كل حكم وقرار يتخذه.

وهناك جانب آخر من الأمر يجب أن نوليه اهتماماً خاصاً في ثقافة الجماعة.

إن حالات الخروج على أوامر الجماعة وعدم الطاعة في أي جماعة من الجماعات لا تبدأ بصورة واضحة من أول الأمر، وإنما تبدأ ببدايات خفيفة وغير مرئية، ثم تتطور وتتضاعف

وتتخذ صوراً وقوالب فكرية وتنظيمية.

وإذا كان من الصعب معالجة هذه الحالات بعدما تتطور وتأخذ مجرى سلبياً، فإن من السهل معالجتها في بداياتها.

ومسؤولية المشرف في أيّ حلقة ثقافية وتنظيمية أن يتابع هذه البدايات والجذور النفسية عند أفراد حلقته، ويكتشفها اكتشافاً ضمن تعامله معهم، ومن السهل اكتشاف هذه الجذور النفسية عند الأفراد في بداياتها بشيء من التدقيق في سلوك الفرد في الجماعة وحديثه وعلاقاته.

فإذا اكتشف المسؤول هذه البدايات في نفس أي عضو يرتبط بمجموعته يجب أن يعطي اهتماماً خاصاً لمعالجة هذه الظواهر النفسية في بداياتها، ويهتم بتربيته وتزكيته وتهذيبه قبل أن تستفحل هذه الحالات ويصعب علاجها ضمن برامج تربوية.

كما أن من الخطأ استبعاد هذه العناصر غير المطلوبة للعمل من أول الأمر، وإنما ينبغي أن يجتهد المسؤول في احتضانهم واحتضان سلبياتهم ما كان إلى ذلك سبيل، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً أوكل أمرهم إلى الله تعالى وأبعده عن جسم الجماعة.

وفي مجال تحمل المسؤوليات ينبغي أن لا يقتصر المسؤول على كفاءة الفرد في تحميله للمسؤوليات، وإنما يؤخذ بنظر الاعتبار قدرته على تجاوز نفسه وتقواه بالإضافة إلى كفاءاته ومواهبه.

ونلخص ما تقدم من حديث عن الطاعة في النقاط التالية:

(١) الطاعة من أهم مقومات الجماعة الإسلامية ومن دون الطاعة لا تستطيع الجماعة أن تؤدي دوراً فعالاً في الأمة.

(٢) لا طاعة لمخلوق من دون إذن الله، وإنما الطاعة لله تعالى، ولمن يأمر الله تعالى بطاعته، وأي طاعة لا تتصل حلقاتها بطاعة الله، ولا تقع في امتداد طاعة الله فهي طاعة غير شرعية، فإن الطاعة من مقولة (التوحيد)، ولا يستحق إنسان على إنسان حق الطاعة، إلاّ إذا كانت هذه الطاعة تتصل بطاعة الله تعالى، ولو كان ذلك عبر عدة حلقات.

(٣) حكم ولي الأمر الفقيه المتصدي لشؤون الأمة نافذ على الجماعات المنظمة باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الأمة.

(٤) الطاعة قيمة عبادية تقرب الفرد العامل إلى الله عزّوجلّ إذا طلب فيها الفرد وجه الله تعالى.

(٥) تختلف قيمة الطاعة باختلاف درجة المعاناة التي يلقاها الفرد في الطاعة، وتبرز قيمة الطاعة في أعلى مستوياتها، عندما يعاكس الإنسان هواه في طاعة الله وطاعة أولياء الأمور، وعندما يغاير القرار رغباته النفسية ومزاجه الشخصي فينفذ القرار الجماعي إيثاراً للمصلحة الإسلامية على رغباته ومزاجه.

(٦) الطاعة موقف نفسي في مغالبة الهوى يترتب عليه موقف

عملي في امتثال أوامر الجماعة وقراراتها.

(٧) كثيراً ما يتذرع الإنسان في تغطية أهوائه الشخصية عندما لا ينسجم مع القرار والموقف الشرعي بالأفكار والنظريات التبريرية.

(٨) الأحزاب المادية والعلمانية تحاول أن تواجه أزمة الطاعة بالقرارات والإجراءات الحزبية الصارمة، بينما نحن نُنظّر للمسألة بصورة مبدئية وأصولية منسجمة مع التوحيد، ونعالج المشكلة في مجال التنفيذ بالتربية الإسلامية الصحيحة قبل أن نلجأ إلى قرارات العقوبة وإن كانت هي أيضاً ضرورية بدورها.

(٩) التربية الإيمانية الصحيحة التي تستطيع أن تواجه حالات التخلف عن العمل الجمعي هو التهذيب والتزكية والإعداد للتقوى التي تنطوي في جوهرها على التخلي عن الذات وهذا هو الدور الأول لتربية الجماعة.

(١٠) وأما عندما يكون الاختلاف نابعاً من الرأي وليس من الهوى فإذا كان الاختلاف في الحكم الشرعي فلا يكون لأحد حق الطاعة على المكلف فيما يراه من الحكم الشرعي اجتهاداً أو تقليداً.

(١١) وأما إذا كان الاختلاف في الرأي في منطقة الفراغ

فرأي الجماعة نافذ على العضو بموجب الموازين الفقهية.

(١٢) ويستثنى من ذلك ما إذا علم الفرد بوجود قصور أو تقصير في مراحل تكوين القرار فإن القصور المخلّ بالكفاءة والتقصير المخلّ بالعدالة يرفع حق الطاعة عن الفرد.

(١٣) وعلى المسؤولين في الجماعة تقع مسؤولية مراقبة الجذور النفسية لحالات التخلف في الفرد وعلاجها في مراحلها الأولى بالشكل الصحيح.

(١٤) إن على المسؤولين احتضان مثل هذه الحالات وإعطائها كل اهتمامهم وتجنب مواجهة هذه الحالات بصورة مباشرة ومثيرة.

(١٥) وينبغي أن يلاحظ أن المقياس في تحمل المسؤولية هو قدرة الفرد على السيطرة على نفسه ورغباته بالإضافة إلى كفاءاته ومواهبه وقدراته العملية.

٤.الإنفتاح والتفاهم والنقد والنصيحة

النسغ الصاعد والنازل:

في الجماعة الإسلامية نسغ صاعد ونسغ نازل، والنسغ الصاعد قبل النسغ النازل، النسغ الصاعد على شكل التقارير والمناقشة، وإعطاء الرأي، والبحوث والدراسات الميدانية من قبل أعضاء الجماعة، والنسغ النازل على شكل قرارات وتوجيهات ورؤى وتصورات، والنسغ النازل ينبغي أن يكون غالباً انعكاساً للنسغ الصاعد بعد اختزاله وتجميعه وطرح التطرفات منه، وضم بعضه إلى بعض وتصحيح وتسديد بعضه ببعض.

فإذن الرأي والقرار لا يتكون في الجماعات المنظمة، عندما نعمل عملاً أصولياً صحيحاً، بصورة عفوية واعتباطية، وإلاّ لم يكن للقرارات والرؤى في الجماعات المنظمة ميزة على الرؤى والقرارات الفردية، وليس المطلوب في الجماعة أن يتم أمر تنفيذ القرار وحمل التصور بصورة جمعية فقط، وإنما المطلوب قبل ذلك أن يتم أيضاً تكوين القرار والرؤية بصورة جمعية أيضاً، وذلك لأن آراء المجموعة أقرب إلى الاعتدال من رأي الفرد أو الأفراد.

وهذه الرؤى التي تتكون في القاعدة على شكل تقارير ومناقشات وأفكار، وتنتقل إلى القيادة، تنقل إلى القيادة خلاصة خبراتها وتجاربها واحتكاكها العملي في الساحة في الشؤون المختلفة التي ترتبط بالجماعة، فتكون أكثر واقعية وعملية من الرأي الذي يتولد ويتكوّن في دائرة محدودة.

وأقرب الآراء إلى الواقعية والاعتدال والصواب هو الرأي الذي يتكون من خلال المعاناة والمباشرة الميدانية، فيتكون الرأي والقرار في مرحلتين: في المرحلة الأولى تتجمع التصورات المنبثقة عن الخبرة العملية والممارسة الميدانية والاحتكاك والمعاناة للأفراد، وفي المرحلة الثانية تتلاقح هذه الآراء وتتكامل ويصحح بعضها بعضاً، ويحذف منها التطرف، وتتعادل في رأي موحد يصدر من قبل المسؤولين في الجماعة على شكل تصور ورأي في القضايا السياسية والاجتماعية، وهذا التصور أو القرار يعتبر حصيلة خبرات وتصورات وممارسات القاعدة، وهذه هي الولادة الطبيعية لأي قرار ورأي للجماعة المنظمة.

ولا يعني بالطبع أن أي قرار يصدر عن الجماعة يقطع هذا الشوط الزمني، فإن مبادئ القرارات والتصورات عندما تتكامل بهذه الصورة تستطيع القيادة أن تستقر على خط واضح في

قراراتها ورؤاها وأدوارها.

وعليه فلابد أن يمارس الأعضاء دوراً فعالاً في تكوين آراء الجماعة وتصوراتها السياسية والاجتماعية والتنظيمية وقراراته، وتساهم في مسيرة الجماعة بإيجابية كاملة ويأخذ ويعطي في داخل الجماعة، ويعتبر نفسه مسؤولاً بنسبة ما عن كل رأي أو تصور أو قرار يصدر من قبل الجماعة.

ولا يجوز أن يبقى الفرد العامل بمعزل عن القرارات التي تتخذ في الجماعة على كل المستويات وأن يقتصر دوره في التنفيذ فقط.

وليس معنى ذلك بالطبع الإخلال في القرارات التي لا تنسجم مع قناعاته ورؤيته،إلاّ انه في نفس الوقت ينبغي أن يعرف حقيقتين اثنتين وهما:

أولاً: إن العضو العامل في الجماعة ـ مهما يكون مستواه ـ فهو مسؤول عن المساهمة في صياغة القرارات والرؤى التي تتبناه الجماعة من خلال الأفكار والتقارير التي يرفعها العضو للجماعة، ومناقشة الأمور مع المسؤولين انطلاقا من الحديث الشريف: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» مع الاحتفاظ الكامل بموقعه التنفيذي بالنسبة للقرارات الصادرة.

وثانياً: إن قرارات الجماعة ورؤاها السياسية والاجتماعية لا

يمكن ولا يجوز أن تشذ عن التصورات الإسلامية العامة والإطار الفكري والسياسي العام للأمة الإسلامية.

إن مجموعة تصورات العاملين والدعاة في أقطار الأرض من هذه الأمة المباركة الشاهدة وقيادتها، وفقهائها، وأفكارهم، وخبراتهم، وتجاربهم الميدانية تشكل الخطوط الرئيسية والعريضة لعمل الجماعات الإسلامية وقراراتها السياسية، ولا يمكن ولا يجوز أن يشذ قرار للدعوة أو رأي في أي مستوى تنظيمي أو سياسي أو ثقافي أو دعوى عن المبادئ الفكرية والعملية التي تشكل الجو الفكري والسياسي والخطوط العريضة للأمة الإسلامية.

ومهمة المحافظة على هذه المبادئ والخطوط الرئيسية تقع على عاتق الأعضاء ومؤتمرات الجماعات الإسلامية، وليس لأي عضو من أعضاء الجماعة عذر في التسامح في هذه المسؤولية الإسلامية المزدوجة:

أ ـ المساهمة في تكوين وصياغة الخطوط العامة التي تتحرك الدعوة ضمنها والتي تكون مبادئ عمل وقرار ورؤية القيادة.

ب ـ مراقبة مسيرة الدعوة وتحركها السياسي والاجتماعي والتنظيمي ضمن الخطوط السياسية والثقافية العامة للإسلام وللأمة الإسلامية، وهذه المساهمة والمراقبة هي التي تعطي

الدعوة الإسلامية المباركة القدرة على الاستمرار والاستقامة في السير والاعتدال والتوازن في القرارات والنضج في الرأي والخبرة والتجربة في الحركة ضمن الأمة الإسلامية الكبيرة.

التعاطي في الرأي بين الجماعة وأعضائها:

وهنا نواجه مسألتين مهمتين:

كيف يعطي العضو رأيه للجماعة التي يعمل ضمنها؟

وكيف يتلقى المسؤولون آراء الأعضاء؟

والأداء الصحيح لهذين الدورين: دور العطاء والمناقشة من قبل الأعضاء ودور التلقي من قبل المسؤولين يضمن سلامة عمل الدعوة.

فلنذكر أولا: كيف ينبغي أن يقدم العضو رأيه للجماعة التي يعمل فيها:

إن المناقشات والمطارحات مع المسؤولين والتقارير الكتبية هي الطرق المألوفة التي يوصل العضو صوته من خلالها إلى الجماعة.

وفي هذا الأمر ينبغي أن يراعي الأعضاء النقاط التالية:

(١) أن لا تؤدي هذه الملاحظات والمناقشات والتقارير إلى إشاعة روح اليأس والسلبية في أجواء الحركة ولا يكون التركيز

دائماً على النقاط القائمة والسلبية في المسار.

إن الضرب على الأوتار السلبية في العمل يشيع روح اليأس في صفوف العاملين وهو أخطر شيء في أجواء العمل، وينبغي أن يكون العامل على حذر كامل من المزالق التي يضعها الشيطان على طريق العاملين، ومن أخطر هذه المزالق أن تتحول المناقشات والتقارير والنقود إلى نغمات سلبية وأداة لإشاعة روح اليأس والقنوط من رحمة الله في صفوف الدعاة وأجواء العمل.

وليس هذا التحذير فضولاً من الكلام ونافلة من القول فإن الذين انزلقوا على هذا المنزلق من العاملين في سبيل الله كثيرون من الذين أراهم الشيطان عقبات الطريق ومتاعبه ومشاكله وأشواكه، وحجب عنهم رحمة الله تعالى وإمداده للعاملين، ونصره، وتأييده فغلب اليأس على نفوسهم وبلغ اليأس بهم حداً تركوا معه العمل واستمر الشيطان معهم حتى جعل منهم ناساً يبثون روح اليأس في المؤمنين ويثبطونهم عن العمل ويدعونهم إلى ترك العمل، وإخلاء الساحة فاستدرجهم الشيطان من اليأس إلى التثبيط أعاذنا الله جميعاً من وساوس الشيطان ومكره وكيده وخبثه.

فيجب على الدعاة أن يتمتعوا دائماً بروح الأمل المنفتحة والمبتهجة، ولا تتحول أصواتهم وتقاريرهم ومناقشاتهم إلى

نغمات يائسة تبث اليأس في نفوس العاملين.

وليضعوا إلى جانب مشاكل العمل ومتاعب الطريق أمامهم رحمة الله الواسعة وتأييده ونصره وإمداده للمؤمنين، وان الله تعالى لن يتركنا لأنفسنا طرفة عين ما دمنا مع الله، وان الله عزّوجلّ يسد العجز ويجبر الكسر، ويكمل النقص ويقوم العوج ويكثر القلة ما دمنا مؤمنين.

إن مسالك الشيطان إلى نفوس المؤمنين كثيرة، ومن أهم هذه المسالك اليأس عن روح الله ورحمته.

(٢) وليعلم الأعضاء أن هذه المشاكل التي تعترضهم على الطريق، والتي تعرقل دربهم هي جزء من سنن الله تعالى في حياة العاملين، لابد من تحملها والصبر عليها، والاستعانة بالله تعالى في تجاوزها.

لقد شاء الله أن تكون حياة العاملين مليئة بالمتاعب والفتن وطريقهم حافلاً بالمشاكل والعقبات، واختلاف الأمزجة والأذواق والرغبات جزء من سنن الله تعالى في حياة الإنسان، والتغلب على هذه المتاعب لا يتم إلاّ بـ(الصبر والعمل) وليس بتوجيه اللوم والعتاب والتعنيف والإلحاح في النقد، وبث روح اليأس في صفوف العاملين.

وليست هذه المشاكل والمتاعب مع الأعداء دائماً، وإنما في

حقل العاملين وبين العاملين أنفسهم أيضاً، ولو كانت مشاكل العامل تقتصر في صراعه مع الكافر والظالم لهان الأمر، ولكن الذي جرت عليه سنة الله تعالى في حياة العاملين أن تستهلك المشاكل التي تنجم بين المؤمنين والعاملين أنفسهم جزءاً كبيراً من أوقاتهم.. وهذا الابتلاء أشد من الابتلاء الأول، فإن المؤمن يبتليه الله بمواجهة الكافر والظالم فلا يتحرج المؤمن أن يرمي عدوه بكل كيد ومكر، ويسعى في محقه والقضاء عليه، ويتخذ لذلك كل الوسائل الممكنة.

وأما حينما يبتليه الله بخلاف بينه وبين أخيه المؤمن في الرأي والفهم أو الذوق والمزاج، ويبتليه بحسد أخيه المؤمن فيحسده، ولربما يكرهه فيقع في حرج شديد فيما يعمل، فهو أخوه على كل حال وقطعة منه، ومنه وإليه، ولا يستطيع أن يمكر به أو يكيد به، أو يقاطعه أو يهاجمه، أو يرد له الكيل بالكيل والصاع بالصاع، فيضطر أن يتخذ إليه كل ذريعة ممكنة من الإحسان والجدال بالتي هي أحسن، والتودد، والتحابب، ويتجنب مواجهته وتقريعه ومنابذته بكل وسيلة ممكنة.

وهذا من أعظم الحرج والابتلاء في حياة المؤمنين ومع ذلك فهو أمر قائم فيما بين المؤمنين ولا سيما في حقول العمل، وسنة جارية لله في حياة العاملين يمتحن الله تعالى به قلوب عباده الصالحين.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام انه قال لسماعة: «يا سماعة، لا ينفك المؤمن (لاحظ تعبير لا ينفك المؤمن) من خصال أربع: من جار يؤذيه، وشيطان يغويه، ومنافق يقفو أثره، ومؤمن يحسده.

ثم قال: يا سماعة، أما انه أشدهم عليه (يعني حسد المؤمن للمؤمن من أشد هذه الابتلاءات).

قلت: كيف ذلك؟

قال: انه يقول فيه القول فيصدق عليه».

وليس من سبيل للقضاء التام على هذه الحالات داخل الحركة ـ أية حركة ـ إلاّ أن تخرج الحركة من سنن الله تعالى. نعم، لابد من السعي لتخفيف هذه الحالات وتحجيمها، ولابد من تهذيب العناصر التي تغلب عليهم هذه الحالات، لئلاّ تتعمق في نفوسهم هذه الحالة ولئلا تنتقل منهم العدوى إلى الآخرين.

إلاّ أن من الجنوح إلى المثالية والخيال أن نتصور أن تتجرد الحركة ـ أية حركة ـ من هذه المشاكل والمتاعب في داخلها.

ولابد للعامل أن يتقبل مثل هذه الحالات من داخل الحركة الإسلامية بروح واقعية، وينبغي أن يتغلّب عليها بالحكمة والموعظة الحسنة، والتي هي من أحسن مسالك الإصلاح.

ولو أننا كنا نعيش في العصر الأول للدعوة أيام رسول الله صلى الله عليه وآله المباركة، وهو أشرف خلق الله تعالى وأقربهم إلى الله، والأسوة

الحسنة للمؤمنين، والمربي والمعلم الأول لوجدنا أن الدعوة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لم تسلم من مثل هذه المشاكل فيما بين المؤمنين والمسلمين الأوائل أنفسهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتحملها ويعالجها برفق وإحسان وسعة صدر.

في تلك الظروف الصعبة، وفي أيام الدعوة الأولى، كانت رياح المشاكل الداخلية تجتاح الدعوة، والدولة الإسلامية الناشئة بقسوة، وتضاعف من هموم ذلك القلب الكبير والصدر الذي شرحه الله بالإيمان.

ولقد كانت تحدث هذه المشاكل والمتاعب من قبل أقرب أصحابه إليه، بمرأى ومسمع منه صلى الله عليه وآله، بل كانت تحدث في داخل حرم بيته، وفيما بين زوجاته أمهات المؤمنين.

فكان صلى الله عليه وآله يواجه هذه المتاعب بقلب اطمئن بذكر الله، وصدر شرحه الله للإيمان، وثقة لا تزعزعه العواطف، ووقار، وبعد نظر.

وهكذا في كل دعوة صادقة لله، في حياة أنبيائه ورسله وأوصيائهم وأتباعهم، كذلك كان إبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وعيسى، وأيوب، وذو الكفل، ويوشع، وذو النون، ويعقوب، ويوسف، ولوط، وزكريا، ويحيى (عليهم الصلاة والسلام) مع أقوامهم، ومع الذين آمنوا بهم وأسلموا.

ولقد رجع موسى عليه السلام من مناجاة ربه فوجد قومه من بني

إسرائيل الذين أكرمهم الله به وأنقذهم من الجهل ومن ظلم فرعون وشق لهم البحر وأغرق أعداءهم، قد عادوا إلى جاهليتهم الأولى وعبدوا العجل، فلم ينسحب رسول الله موسى﵇ من دعوته ورسالته، ولم يعتزل قومه ولم يعدل عن عمله.

وقد كان رسل الله﵏ يتقبلون هذه الحالات الإنسانية في نفوس أصحابهم وأقوامهم بروح واقعية مطمئنة والحمد لله الذي لم يبتلنا بمثل هذه الحالات، فنحن لا نطيق الكثير منها، وان نفوسنا لتضيق بما هو دون ذلك، واقل من ذلك بكثير، إلاّ أن علينا أن نضع خطانا على مواضع خطاهم﵏، وأنْ نجعل منهم﵏ قدوة لنا وأسوة، وان نعرف سنن الله تعالى في حياة الناس والمجتمع، والحركات، وفي نفوس الناس وان نكيّف أنفسنا بموجب هذه السنن، وان نتقبل هذه الحالات بالصبر والصلاة وبروح محمدية وعلوية.

ونلاحظ في تقارير الإخوة الأعضاء ومناقشاتهم وهمومهم أن صدورهم قد تضيق بمثل هذه الحالات وتثقل هذه الهموم على قلوبهم فيطلبون ما ليس في الإمكان.

(٣) وليكن همّ العاملين في تقاريرهم ومناقشاتهم إعطاء الحلول العملية لهذه المشاكل، وليس تكثير النقد وتكثيف المناقشات والاعتراضات، فان من السهل توجيه النقد إلى أية

جهة عاملة، فلابد أن ينصب اهتمام الإخوة العاملين إلى الحلول بموازات النقد، ولابد أن تكون هذه الحلول في حيز الممكنات ومن موقع المسؤولية.

ولابد أن يأخذ الفرد العامل بنظر الاعتبار حينما يقدم حلاً لأي مشكلة ظروف العمل وإمكانات الجماعة وقدراتها الفعلية والمعادلات المعقدة التنظيمية والسياسية التي تتحرك ضمنها، ثم يفكر في الحل، وهذا هو الموقع المسؤول في تقديم النقد والحل، فإن الفرد العامل عندما يستبطن موقع المسؤولية في ضمن الظروف والإمكانات والملابسات الموجودة يكون أقرب إلى الواقعية فيما يطرح من حلول للمشاكل التي تواجهها الجماعة.

(٤) وينبغي أن يهتم العاملين بأن لا تؤدي هذه المناقشات إلى وجود بلبلة في العمل في صفوف الجماعة فإن التقارير والمناقشات التي ترفع إلى الحركة الإسلامية من غير القنوات العاملة تؤدي إلى إشاعة جو من البلبلة والفوضى داخل الحركة ويكشف للآخرين ما لا ينبغي أن يكشف لهم ويشوّش عمل شبكات التنظيم داخل الحركة.

وفيما يتعلّق بالتلقي وهو الطرف الآخر من المسألة.

على المسؤولين أن يدعوا الأعضاء العاملين في الحلقات إلى

مناقشة قضايا الحركة من كل جوانبها ويفسحوا لهم المجال لإعطاء آرائهم.

وعليهم أن يعودوهم على مناقشة القضايا السياسية، ومطارحة الأفكار والتصورات السياسية والاجتماعية ونقدها، وتكوين الآراء السياسية، فإن العامل لا ينمو إلاّ من خلال المحاولة والحركة، ولا يستطيع العامل أن يخدم الحركة الإسلامية في مسيرها المتلاطم الصعب ما لم يتمرس على المناقشة، ومطارحة الأفكار، والتداول في الرأي، كما لا تنمو الحركة إلاّ من خلال تداول الأفكار وتبادل الآراء والخبرات.

عن الإمام الصادقعليه السلام: «ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع».

ومن غير الجائز أن تفرّط الجماعة في مثل هذه الثروة النظرية من الخبرات والتجارب والآراء المنبثقة من الاحتكاك المباشر بالأوضاع والظروف الاجتماعية والسياسية، فان هذه الآراء والخبرات والتجارب التي تتكون في القاعدة هي النافذة المفتوحة التي تستطيع قيادة الحركة أن تطل منها على ساحة العمل وتكون من خلالها آرائها في السياسة والتنظيم والمجتمع.

حسن الإصغاء

ومن المسائل التي ينبغي أن يوليها المسؤولون اهتماماً بالغاً حسن الإصغاء إلى مناقشات الدعاة وتصوراتهم فان الإصغاء فن من فنون العمل، وليس كل من يسمع إلى الطرف الآخر يستطيع أن يحسن الإصغاء، ويشعر المتكلم بإقباله عليه.

وقد كان من صفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصغي كثيراً ويتحدث قليلاً، وإذا أصغى إلى أحد أقبل عليه بوجهه.

وقد جعل الله تعالى الإصغاء مفتاحاً لحل كثير من المشاكل، فلربما يقدح الله تعالى في ذهن إنسان من عامة الناس ما لا ينقدح في أذهان المتمرسين على العمل، ولربما ينتبه العامل من عامة العاملين إلى قضية أساسية لا ينتبه إليها قادة الحركة وتغيب عنهم.

وإهمال مناقشات الدعاة وتقاريرهم وعدم الاهتمام بالإصغاء إلى أحاديثهم يحجب عن الحركة الإسلامية آفاقاً من المعرفة، كان يمكن أن يفتحه الله تعالى على الحركة. وقد كان أبو الحسن الرضاعليه السلام ربما شاور غلاماً من غلمانه فيقال له: تشاور مثل هذا؟ فيقول: إن شاء الله ربما فتح على لسانه.

وحسن الإصغاء من مفاتيح القلوب كما هو من مفاتيح

المعرفة، فإن الاهتمام بالمتكلم ورأيه، والإقبال عليه، والإصغاء له يكسب قلبه ومشاعره وأحاسيسه للمخاطَب، كما يمكّن المسؤول من معرفة الأوضاع النفسية للعامل، ومن خلال هذه المعرفة يستطيع المسؤول أن يوجه العامل ويبني شخصيته بناءً سليماً ويعالج المشاكل التي يعاني منها أحياناً.

ولأهمية مسألة (الإصغاء) في الدعوة لابد أن نقف قليلاً عند ظاهرة سوء الإصغاء والإعراض عن أحاديث الدعاة ومناقشاتهم.

إن ظاهرة إهمال حديث المتكلم وعدم الإصغاء إليه ينشأ من أحد الأمرين: إما من يقين المسؤول برأيه، أو عدم احترام رأي الطرف الآخر، فقد يحمل الإنسان أحياناً وضوحاً في أمر من الأمور بدرجة كافية، فيمنعه هذا الوضوح من الإصغاء إلى الرأي المخالف، وكأنه قد فرغ من موازنة الأفكار المختلفة، وانتهى إلى نتيجة قطعية لا تقبل التشكيك والمناقشة، فلا يسمع إلى رأي آخر معارض لرأيه، ولا يفتح قلبه وصدره لأي مناقشة أو أي رأي معارض.

وقد يتسامح الإنسان في الإصغاء والإقبال على تفهم رأي الطرف الآخر وحديثه استهانة بصاحب الرأي.

وكلا الأمرين يحجبان الإنسان عن آفاق من المعرفة والفهم، وقد جعل الله تعالى مفاتيحها في الإصغاء وكما يحجبان الإنسان

عن المعرفة كذلك يحجبانه عن قلوب الآخرين ومشاعرهم، فقد يطرح الإنسان قناعته على شخصين فيرد كل واحد منهما عليه، فيقتنع برد أحدهما ولا يقنع برد الآخر، ولا يكون الفرق في أسلوب الرد، وإنما في أسلوب الإصغاء فيكسبه أحدهما بالإصغاء، ثم يناقش رأيه فيقبل مناقشته، وينفّره الآخر بسوء الإصغاء فيناقشه فيتلقى مناقشته من موقع المواجهة فيرفضها.

ومسألة حسن الإصغاء وسوء الإصغاء دقيقة للغاية، وقد لا ينتبه المسؤول إلى وضعه مع الدعاة من حيث الإقبال على أحاديثهم والإصغاء إليهم إلاّ بعد التنبيه والتدقيق.

* * *

وبعد فهذه هي بعض أصول وقواعد الصيغة الصحيحة والسليمة للعلاقة العضوية داخل الجماعة الإسلامية، باعتبارها شريحة من الأمة الإسلامية الكبيرة.

إن العلاقة داخل الجماعة الإسلامية الجماعية تشبه الطيف الشمسي في تعدد عناصره، فإذا اختل عنصر واحد من هذه العناصر تختل العلاقة ويختل عمل الجماعة ودورها.

إن الحالة الصحية داخل الجماعة الإسلامية تتطلب أن تكون العلاقة قائمة على أساس من (التحابب في الله) و(الثقة)

و(الطاعة) و(الانفتاح).

فلابد من التحابب في الله لتكتسب العلاقة الجماعية القدرة على الاستمرار، وتنغلق به المنافذ التي من خلالها ينزغ الشيطان في قلوب المؤمنين، ويثير فيها الحساسيات.

ولابد من الثقة، فمن دونها لا تكون العلاقة فاعلة، ولن تكون طاعة حقيقية، ولا تلتحم أجزاء التنظيم التحاماً حقيقياً صادقاً.

ولابد من الطاعة فإن جوهر التنظيم هو الطاعة، ومن دون الطاعة يختل التنظيم، ولا يبقى معنى للعمل الجمعي.

ولابد أن تكون هذه الثقة والطاعة قائمة على أساس من القناعة والفهم والتفاهم وتبادل الآراء والمناقشة.

وبهذه التركيبة الخاصة تكون العلاقة داخل الجماعة علاقة سليمة، وذات أثر فعال في بناء الجماعة داخلياً، وفي دور الجماعة ورسالتها في المجتمع.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

الفهـــرس